تحسين النسل

EUGENICS

ملخصة بتصرف عن ليونارد دارون

تمهيد : اهتم المزارعون ولا يزالون فى كل زمان ومكان يهتمون كل الاهتمام فى انتخاب الاصلح من أنواع المواشى لعلمهم ان ذلك يعود عليهم بجم الفوائد . حتى العرب كانوا يحفظون سلسلة نسب لجيادهم الاصائل ، ويمنعونها من التلاقح مع الانواع الرديئة من الخيل ، وقد تسلالت أنواع الكلاب مما يسمونها «الكلاب الذئبية» المتوحشة ، فكان يستكن بعضها فى حين يرجع البعض الآخر الى الاحراش ثانية . وكان الانسان يعدم ما تغلبت الوحشية على طباعه من الكلاب ، ويبقى ماخلاها لديه . وكلما كان الكلب مسالما ومطيعا ومحبا لصاحبه كلما حرص عليه الناس . هكذا أوجد الانسان الكلب الخاص الذى نأتمنه فى العهد الحاضر . وبالطبع كانت عملية الانتخاب هذه تتم بلا قصد فى بادىء الأمر . وكانت أسرع الكلاب عدوا تخصص للصيد ، وكلما تفوق أحدهم عن غيره تهافت الناس على اقتنائه والاكثار من نسله ، وبالطبع للتكوين دخل عظيم في المساعدة على سرعة العدو. فنتج عن هذا الانتخاب نشوء « الكلب السلوقى » أما « الكلب الصينى » فقد نشأ كنتيجة لاهتمام بعض الناس بأصغر الكلاب حجما وأجملهم منظرا و « كلب الحراسة » نشأ كنتيجة لتشجيع صنف له ميزات مخصوصة. وما يقال عن الكلب يقال عن الماشية ، فالتى كانت مكتنزة اللحم مدرة لكمية أكبر من غيرها هى التى احتفظ بها ، وأما التوالد فى الخراف فكان يتم على أساس اللحم ونوع الصوف . وبين الدجاج على اكتناز اللحم أيضا وكبر مع كثرة البيض

كل ماسبق من القول يعده المزارع من البديهيات لانه يقوم بهذا العمل بطريقة آلية ولا يرى فيه أمراً غريباً . ولكنك اذا ناقشته في وجوب تحسين نسل الانسان دهش ، وكثيرا ما يجيب على ملاحظتك بقوله « ولكن نحن بنو آدم وهؤلاء ليسوا اكثر من حيوانات » فسوء الفهم ناتج والحالة هذه من فكرة خاطئة توارثها الناس خلفا عن سلف، يجب محاولة اثبات خطئها قبل الدخول فى الموضوع

الانسان : اننا لو رجعنا الى الماضي عند مقارنتنا للحيوانات الدنيا يتجلى لنا وجوب رجوعها الى أصل واحد من ملاحظة عظم المشابهة المشتركة بين الانواع او بعضها . وان من السهل اقناع أى شخص بصحة هذا الاستنتاج ، ولكن يواجه الباحث صعوبة اذا حاول أن يثبت على نفس الاساس اننا نحن البشر ابناء عمومة الحيوانات الحيوانات . ويمكن الوقوف على هذه الحقيقة من قراءة كتاب الطبيعة العظيم المسطر على طبقات الصخور . فكلما بحثنا في المستويات الارضية الاكثر عمقا نجد أثراً للحيوانات الدنيا التى تبدأ تمتزج آثارها بحيوانات أرقى من سابقتها ، كلما تقهقرنا فى مستويات أقل عمقا . ومما سبق نستدل بان الحيوانات الراقية وجدت بازمان طويلة بعد الحيوانات الدنيا لان آثارها لم توجد الا فى الطبقات المستجدة ، كذلك لوحظ من تلك الآثار ان بقايا الحيوانات المتشابهة تتواجد متقاربة من بعضها ، وكلما ازدادت ابتعادا عن بعضها ازداد تباينها بالاستتباع . واذا فحصنا جسم الجنين نجده يحوى أعضاء مشابهة لتلك التى لانجدها الا في الحيوانات المائية. كذلك الاعضاء الاثرية التى تحتويها أجسامنا تدل على نوع المعيشة التى كان فيها أجدادنا الاول كالاظافر مثلا ، فاننا لانستفيد منها فى الوقت الحاضر ولكنها كانت ضرورية لاسلافنا . فالقول بان الانسان تسلسل من مخلوق قريب الشبه بالقردة يجب أن يجتذب انتباهنا كأمر مهم جدير بالدرس . ومن سوء الحظ ان تخبطات الاقدمين قد أصبحت بمرور الزمن اعتقادات دينية تجبر على التسليم بصحتها بالرغم عن انها تخالف الواقع .

وكيف لاتكون فكرة النشوء صحيحة وكلنا يعلم تمام العلم أنه نشأ من نطفة لزجة مشابهة للسمك الدن التكوين، الأمر الذى نجد له شبيهاً بين أحقر انواع الحيوانات وعند ما تنمو قليلا يتعذر على المشاهد معرفة ما اذا كان الجنين لكلب أو لخنزير أو لانسان لان كل الاجنة فى دور تكوينها الاول تكون متشابهة تماماً . وعند ماتولد نكون فى حاجة اكثر الى الحماية كنتيجة لضعفنا الجسدى من جهة، ولقلة ذكائنا من جهة أخرى . فكثير من الحيوانات ان لم أقل كلهم يولدون قادرين على الحركة فيبحثون على طعامهم مباشرة وإما يحتاجون لفترة قصيرة جدا ليتمكنوا من الاهتمام بمدها بأنفسهم . وأما نحن فمدة حضانتنا اطول وحاجتنا إلى العناية أكثر . وفى مدة حياتنا نقوم بادوار قام بها اسلافنا فى عهود التاريخ البشرى المنقرضة . ففى الطفولة نعجز عن كبح أنفسنا ونميل إلى الاستحواز على كل مانجده غير مهتمين بحقوق الغير . فما دمنا نر على هذه الاطوار ولا نستحى من الاعتراف باننا نمر عليها ، فلماذا نستحى من الاعتراف بان الانسانية قد مرت على هذه الاطوار ؟ ليس فى هذا التسليم اى اهانة لنا بل بالعكس اننا نشعر بارتياح عند مقارنة مانحن فيه ، وما كان عليه آباءنا من تأخر

فليس هناك اعتراض على القول بأننا أعلى فرع من شجرة الحياة التى قامت على جذع واحد . ولكن قد يسأل شخص « كيف حدث هذا الاختلاف العظيم ؟ » اذا قل الطعام ينقص عدد الناس كنتيجة للمجاعات، وكلما كثر الطعام اخذ عدد الناس فى الازدياد . ومعنى هذا ان العدد يرجع إلى ما كان عليه فى اليسر الذى يلى المجاعة. فاذا ازداد الطلب عن المعروض، وجب أن يموت البعض ليكفى المعروض الطالبين . فلو أنتج كل زوج من الناس زوجا وتابع نسلهم طريقة التناسل هذه لايتعرض العدد للزيادة . ولكن الواقع ان متوسط الانتاج يزيد عن زوج ، فالعدد اذن يأخذ على مرور الزمن فى الازدياد المتتابع الى أن

يجد أن موارد غذائه ليست كافية ، وعندئذ يتنازع الأفراد مع بعضهم على الغذاء من أجل البقاء و ينتصر الاقوى بالطبع . وليس معنى هذا أن التنازع يتم دائماً بين الأفراد بل ينتج ايضاً فى بعض الأحوال من جدب يصيب الأرض التى يسكنونها اذ ان بعضهم لايجد له خدناً من الجنس الآخر او أن تجتاح البعض أمراض وافدة . فالاصلح من غيره هو الذى ينتصر فى المخاصمات أو الذى يسرع إلى أرض وافرة الخيرات أو يقاوم الأمراض او هو المقبول من أفراد الجنس الآخر للمساعدة على عملية اللقاح . فالعامل على بقاء الذى يبقى هو « الانتخاب الطبيعى »

يقدرون أن الحياة وجدت على ظهر البسيطة قبل الف مليون سنة . وكانت مرسحاً للتنازع وللانتخاب . فالطبيعة هى الموجدة للانتخاب بيننا كما هو الحال بين الكلاب التى تنوعت بعد آلاف من السنين عن الاصل الذى نشأت عنه . وكذلك نقول ان الانتخاب الطبيعى كان العنصر الفعال فى تطور الانسان من درجة أدنى

البيئة : وجدنا فيما سبق أن المسبب في ابقائنا على حيوان دون الآخر هو امتيازه عن ذلك الآخر باحدى الخلال . مثلا حسن منظره أو قابليته لادرار كمية اكثر من اللبن . نسلم كلنا أن الانسان وجد من نطفة ليس من المتيسر التفريق بينها و بين أى نطفة أخرى لان لكل مظهر متشابه . ولكن فى الحقيقة ليس هناك تطابق بين أى نطفتين . واختلاف نطفتين عن بعضهما هو الاصل في اختلاف الفردين اللذين ينشآن منهما . وهذا مايسمونه الاختلاف الوراثى . فاذا شاهدت رجلا له عينان سوداوان وآخر عيناه خضراوان فقد عثرت على مثل من الاختلاف الوراثى . ولكن ليس هذا هو الخلاف الوحيد الذى نعثر عليه ، فان كل فرد ينشأ و ينمو فى بيئة مخالفة للوسط الذى ينشأ و ينمو فيه الآخر . فواحد يولد فى المنطقة الحارة المعرضة لحرارة الشمس ، بينما يولد الآخر بالقرب من القطب الشمالى . فهذا الاختلاف مكتسب ، وهو شىء آخر غير الاختلاف الناتج من اختلاف

النطف. لنبدأ الآن ببحث الاختلاف المكتسب. فهل للاعتناء بالتربية أثر على الانسان ؟ من المسلم به ان المكتسب لا يورث . فالرجل الذى قطعت يده لا يلد طفلا بيد واحدة . فهل اذا انتمى الى مهنة الحدادة بينما استخدم اخوه كاتباً في احدى المحال التجارية، هل يكون ابناء الحداد أقوى عضلا من ابناء الكاتب ؟ او اذا قادت ظروف احد الأخوين إلى الاجرام فى حين كانت ظروف الآخر مبعدة له عنه، هل يكون ابن المجرم، حتى فى حالة انتشاله من الوسط الاجرامى، ميالا للاجرام، أم يكون مثل ابن عمه ؟ من رأى بعض العلماء ان ابن المجرم يحوى أثراً من الاستعداد للاجرام. ولكن الرأى السائد يقول إن صناعة الحدادة أو سرقة الأب لا تؤثران على الولد

هنا يجب أن نتساءل اذن لماذا يتوارث الناس الميل إلى السكر عن والديهم؟ هناك سببان لتلك القدوة السيئة، اذ يقلد الولد أباه و يرث عنه الاستعداد، وهو ضعف يحرض صاحبه على تناول المسكرات . وهناك عائلات تفشى فيها داء السكر .

سبق لنا القول ما قد يفهم منه ان البيئة لا تؤثر فى اصلاح النسل ، وليس معنى هذا ان لا اهمية مطلقاً لهذه البيئة، فالتربية والمسكن والصحة والرياضة كلها مهمة . فالتعليم يصبح على مر الزمان احد التقاليد العائلية يتبعه النسل . واكثر طريقة تعود بالفائدة على الناس هي إصلاح الوسط ، فيجب ان نضع نصب أعيننا . ولا نريد أن نبحث تأثير الوسط هنا فهو خارج عن موضوع تحسين النسل، لانه من علم الاجتماع . الا أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن امتزاج جماعة راقية باخرى أقل رقيا ينتج اقتباس الثانية لبعض وجهات الارتقاء من الأولى، وهذا أمر يشعر به الناس، أما الذى لا يشعرون به فهو انجذاب الجماعة الراقية إلى الجماعة الأخرى أيضاً . فالاتصال الاجتماعى لا يقتصر تأثيره على جهة دون الأخرى، بل يعمل على محاولة ايجاد مساواة بين الطرفين . كذلك يجب التنبيه إلى أن هناك فرصة لصالح ابن الغنى من جهة التعليم. و بما ان عدد الصغار الذين ينشئون في الاوساط الفقيرة

يزيد كثيراً عن عدد صغار الاغنياء، فتأثر الوسط من الفقير يكون أكثر من تأثره من الغنى . فالامة التى تريد رفع مستواها ملزمة والحالة هذه للعمل على اقلال هذا التباين ليس بافقار الاغنياء بل بدفع الفقراء إلى طريق الغنى

الوراثة : قد يوجد من يدعى بان الاختلاف الحادث بين الناس ناتج عن البيئة، و بذلك ينفى فكرة اختلاف النطف المسببة لاختلاف الاشخاص . هل يمكننا أن نمنع شعر انسان من أن يكون أسوداً ؟أو أن تكون عيناه زرقاوان عند الولادة ؟ لاشك اننا نسلم بعد قراءة هذين السؤالين من ان الناس يختلفون عن بعضهم منذ الولادة بالأقل من الوجهة الجسمانية . كذلك الحال فى الاستعداد العقلى، فان كل منا يعرف انه درس مع أناس فاقوه في الحفظ كما فاقه غيرهم فى القوة الجسمانية. كذلك اذا تطلعنا إلى الخلف نتذكر سيئات اقترفها بعض التلامذة لم نكن نحن نجرأ على اقترافها، لافرق فى ذلك بين أبناء الفقراء أوالاغنياء او بين الطلبة الذين اتوا من بلدان مختلفة ، او تربوا تربية قاسية ، أو نشؤوا فى وسط عطوف. و تختلف الاخوة في ذلك عن بعضهم مع انهم نشؤوا فى نفس البيئة .فهذا التنوع ناتج عن الوراثة . ولكن كيف يختلف أفراد العائلة الواحدة عن بعضهم بالوراثة ؟ يكتسب الطفل من والديه بعض الصفات ، لكنه يورث لأحد أبنائه صفاتا من جده اكثر مما يورثه عن جدته ، و يورث الثانى عن جدته اكثر مما يورثه عن جده. فهذا هو السبب في الاختلاف بين الاحفاد، هذا اذا كان الطفل يورث عن جديه الأولين فقط ، ولكنه يرث الاجيال السابقة كلها . اذا اخترنا الف والد من أطول رجال بلد لايتيسر لنا الحكم كيف يكون أولادهم . ولكن يصح لنا أن نقول أن منهم من سيكون طويلا . وأن متوسط طول كافة الاولاد يكون أقل من متوسط طول الآباء ، واكثر من متوسط طول كافة اهالى البلد . فنتائج ما نتخيره لاجل الاكثار ، لايكون فى درجة ماسبق لنا انتخابه للاكثار منه ، ولكن الناتج يكون أحسن من المتوسط الذى انتخبنا منه

وما دام انه قد ثبت لنا أن الصفات التي تتوارث غير مكتسبة ، في حين أننا نعرف ان بعض هـذه الصفات حسن والبعض سيء ، فيجب العمل على منع ايجاد اولاد معرضين لوراثة الصفات السيئة دون الحسنة . فهل يمكننا إحداث تغيير في النطف ؟ كلا . اذن كيف يتيسر لنا فعل ذلك عن طريق الاختيار .

التحسين : يمكن لنا ملاحظة ان الفلاح الذي يعتني بنظافة مواشيه ، وأمكنة اقامتهم ، و بنوع علفهم ، أقرب للنجاح من الذي يهمل مواشيه . كذلك نجده لايقدم على شراء مواشي جديدة اذا امتلأت خطائره بالمواشي ، بل بالعكس من ذلك ، يستغني عن بعض ما عنده . وانه دائما يحتفظ على أحسن المواشي و يبيع أو يذبح الاقل درجة ، وأنه انما يحتفظ بالاحسن لتولد له مواشي جيدة . ومعنى ماسبق هو ان الفلاح يهتم باصلاح البيئة والوراثة معا . ومن الغريب اننا لا نهتم باجراء هـذه العملية بين الناس وهم أحوج اليها من البهائم ، وذلك لان شفقتنا العمياء هي التي تدفعنا لعدم الاهتمام بالمستقبل بصفة جدية . لذلك تهتم الحكومات بنشر التعليم ، أي تهتم باصلاح البيئة فقط ، ولا تعير اهتماما بعملية الانتخاب متجاهلة ان البيئة معرضة للانقلاب في أي وقت ، والافان هي مدينة روما ؟ ألم تكن مهد العلم والثقافة في وقت من الاوقات ؟ أما زعماد المتوارث فيثبت امام العواصف مهما اشتدت و يزداد ثباته اذا تقوى بالانتخاب .

قد يسأل قارىء ما الذي تريدنا أن نفعله ؟ أتنتظر منا أن نذبح السيء كما يذبح المزارع ماشيته ؟ أم تريدنا أن نلقي بالطفل الغير صالح في صندوق القمامات كما نفعل بالهرة الصغيرة ؟ أم تريدنا أن نجبر الناس على التزاوج على النسق الذي يتبعه صاحب البهائم ؟ والسائل محق في اسئلته هذه لان القتل والوأد واستعباد الناس أمور قد ولى زمنها ونحن لانطلب ذلك

للبحث بقية

عمر عنايت